

تجدد المشكلات التى واجهها ابن تيمية يقتضى مجاهـــدتها من جـــديد

بقلم : الـــدكتور عبـــد الله عبـــد المحسن التركى
مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض

الحمد لله الذى يهدى الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق باذنه . والصلاة والسلام على من تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان .

* * *

تفصل القرون العديدة ، والعصور المديدة بين الناس .

فيعيش قوم فى القرن الثامن الهجرى و يعيش قوم آخرون فى القرن الخامس عشر الهجرى مثلا .

وعلى الرغم من هـذه الأزمان المتطاولة التى تفصل بين هؤلاء وأولئك فانهم يتشـابهون فى معتقـداتهم المنحرفـــة ، وأفكارهم وتصوراتهم الباطلة ، وفى مواقفهم المعاندة للحق .

قال تعالى :

﴿وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قـــد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . (البقرة : ١١٨) .

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾. (التوبة : ٣٠).

والتشابه فى المعتقدات والتصورات الباطلة، ينتج سلوكا باطلا منحرفا يؤدى إلى مصير متشابه :

﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و أولئك هم الخاسرون﴾ (التوبة : ٦٩).

* * *

وهذا التشابه — فى المعتقدات والأفكار والمسالك والمصائر — بين الضالين — القدماء والمحدثين — حقيقة تاريخية، وواقع قائم ينبغى أن يعيهما الحفيظون على السنة والمشتغلون بالدعوة إلى الاسلام، ففى الوعى العميق بهما زاد نفيس من العلم والفقه يرتفقه أهل الحق وهم يردون الأمة الى الطريق الصحيح والمنهج القويم.

ومن هذا الزاد النفيس النافع :

- زيادة اليقين بأن من يتجافى عن منهج السنة يهلك لا محالة.
- إدراك ان الدعاوى الحديثة، و الفتن المعاصرة ليست سوى أفكار قديمة أخرجت فى ألفاظ معاصرة، وفى وسائل جديدة.
- الاستفادة من جهود أئمة الهدى السابقين فى نقض الفتن المعاصرة. وليس معنى ذلك ان يقعد الدعاة، أو أن تقصر هممهم دون بذل الوسع فى تفنيد الشبهات الجديدة.

ان المعنى المقصود هو : أن هناك مشكلات بعثت من جديد — وهى ذات جذور فى الماضى — وأن أئمة الهدى السابقين قد عالجوا هذه المشكلات فى جذورها الأولى ، وكان لهم فيها — من ثم — بصر وخبرة .

* * *

لقد واجه شيخ الاسلام ابن تيمية مشكلات كبرى فى عالمه ، و فى عصره فاستعان بالله عز وجل ، وجرد نفسه لمواجهتها بعلم ، وبصيرة ، وثبات جنان ، وقوة بيان .

ولقد دلتنا دراستنا للنتاج العلمى لابن تيمية ، كما دلنا وقوفنا على قضايا عصرنا على أن معظم المشكلات التى واجهها ابن تيمية قد تجددت اليوم وعادت جذعة .

وهذا برهان على أن المفسدين والمرجفين يدعون لذات المعتقدات الفاسدة وإن فصلت بينهم قرون وعصور .

* * *

ومن المتعذر أن نعرض لكافة القضايا التى واجهها ابن تيمية فهى من التشعب والضخامة بحيث استغرقت مؤلفات ابن تيمية كلها تقريبا .

ولكننا سنختار نماذج محدودة من تلك المشكلات ، مجتهدين فى ربطها بالواقع : استجلاء لحقيقة أن ما كان بالأمس ، يجرى اليوم .

معاداة السنة .

النموذج الأول هو : أن ابن تيمية — رحمه الله — واجه مشكلة « معاداة السنة » أو ادعاؤها بغير دليل .

قال — رحمه الله — : « فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق — أى الفرق

المخالفة للسنة — بحكم الظن والهوى فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعـــة ويجعل من خالفها أهل البدع ، وهذا ضلال مبين فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ ، الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ، فهو الذى يجب تصديقـــه فى كل ما أخبر ، وطاعتـه فى كل ما أمر ، و ليست هذه المنزلة لغيره من الأئمـة ، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ .

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هى الفرقة الناجيـــة أهل الحديث والسنـة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له الا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله ، وأعظم تمييزا بين صحيحها وسقيمها ، وأئمتهم فقهاء فيها ، وأهل معرفـــة بمعانيها واتباعا لها : تصديقا وعملا وحبا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها .

ولبث ابن تيمية يوضح معالم السنة ، ويميز بين أوليائها وأعدائها ، وينتصر لها بالقول والفعل والموقف ، حتى عد — بحق — محييا مجددا لمنهج أهل السنة والجماعة .

وكان جماع سعادته أن يرى سنة رسول الله ﷺ منصورة والبدعة مقهورة .

قال — فى كتابه إلى الملك الناصر — . « اما بعد : فقد صدق الله وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأنعم الله على السلطان ، وعلى المؤمنين فى دولته نعما لم تعهد فى القرون الخالية ، وجدد الاسلام فى أيامه تجديدا بانت فضيلته على الدول الماضية ويحقق فى ولايته خبر الصادق المصدق ، أفضل الأولين والآخرين ، الذى أخبر فيه عن تجديد الدين فى رؤس المئين »

ان هذه المشكلة التى واجهها ابن تيمية تجددت اليوم ، فهناك — فى أيامنا هذه — من يحارب السنة ويعاديها .

وهناك دول قامت لتحارب السنة ، وتنشر ما يخالفها .

وهناك من يدعى السنة وهو يوالى اعداءها من أهل الزيغ الرافضين لها أولئك الذين ينكرون السنة أصلا، ويبغضونها اعتقادا وشعورا.

فهل هناك من يواجه هذه المشكلة الجديدة بمثل ما واجهها به ابن تيمية،

تمزيق الأمة :

و النموذج الثانى أن ابن تيميـــة واجه مشكلة « تمزيق الأمة » الاسلامية ولذا جاهد من أجل ائتلاف الأمة ووحدة الجماعة.

قال ـــ رحمه الله ـــ : « ان الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف » : ﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء﴾ (الأنعام : ١٥٩). وقال النبي ﷺ : « عليكم بالجماعة فان يد الله على الجماعة ». فالواجب على المسلم اذا صار فى مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعـــة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم، وان رأى بعضهم ضـــالا أو غاويا وأمكن أن يرشده ويهديه فعل ذلك.

إن هـذه المشكلة التى واجهها ابن تيميـــة تجددت اليوم، فهناك من مرد ـــ و هو يدعى الاسلام ـــ على تمزيق وحدة المسلمين بالتهييج الطائفى، وبتسعير الحروب، وباثارة الفتن فى الحج.

فهل هناك من يواجه هذه المشكلة الجديدة بمثل ما واجهها به ابن تيمية.

موالاة أعداء الاسلام

والنموذج الثالث ان ابن تيمية واجه مشكلة ملؤها الخيانة، والغدر، فان قوما يدعون الاسلام قد والوا أعداء الاسلام، وفرحوا بانتصارهم.

ولندع شيخ الاسلام يقص علينا قصة هؤلاء الخونة.

قال ـــ رحمه الله ـــ : ان المسلمين ـــ خاصتهم وعامتهم ـــ عند الرافضة

كفار مستباحو الدم .

ولهذا السبب يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين ، فيعاونون التتار على الجمهور ، وهم كانوا من أعظم الأسباب فى خروج جنكزخان ملك الكفار — إلى بلاد الاسلام ، وفى قدوم هولاكو إلى بلاد العراق ، وفى أخذ حلب ونهب الصالحية ، و غير ذلك بخبثهم ومكرهم ، لما دخل فيـــه من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم .

وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر عليهم وقت انصرافه إلى مصر فى النوبة الأولى .

وبهذا السبب يقطعون الطرقات على المسلمين .

وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والافرنج على المسلمين والكآبة الشديدة بانتصار الاسلام ما ظهر .

وكذلك لما فتح المسلمون الساحل — عكا وغيرها — ظهر فيهم من الانتصار للنصارى و تقديمهم على المسلمين ما قد سمعه الناس .. وكل هـذا الـذى وصفت بعض أمورهم ، وإلا فالأمر أعظم .

و لهذا اتفق أهل العلم بالأحوال : أن أعظم السيوف التى سلت على أهل القبلة ممن ينسب إليهـا ، وأعظم الفساد الـذى جرى على المسلمين ممن ينتسب إلى أهل القبلة ، انما هو من الطوائف المنتسبة اليهم .

و هم يوالون اليهود و النصارى والمشركين على المسلمين .. وهـــذه من شيم المنافقين .

ولهذا لما قـدم التتار إلى البلاد ، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد ، أرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل ، وحملوا رايـــة الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله

وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوما، يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار.

ولما خرجت العساكر الاسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزى والنكال ما عرفه الناس منهم.

ولما نصر الله الاسلام النصرة العظمى عنـــد قدوم السلطان، كان بينهم شبيه عزاء.

ان هذه المشكلة التى واجهها ابن تيمية تجددت اليوم.

فها هى دولة خمينى توالى أعداء الإسلام، وتتخالف معهم سرا وعلانية.

فهل هناك من يواجه هذه المشكلة بمثل ما واجهها به ابن تيمية؟

* * *

لئن تشابهت قلوب المبطلين — الغابرين و المحدثين — وتشابهت أفكارهم ومسالكهم بالباطل.

فان الحق هو الذى يوحد موكب المؤمنين: المستقدمين منهم والمستأخرين واذن فليتصل موكب ابن تيمية.

ولينهض اليوم رجال بمثل ما نهض به من جهاد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.